الفصل الثانى

رحلات بحرية

١

فى عالم البحر

سلكت الأمم القديمة فى آسيا وإفريقية وأوربة البحارَ التى تحيط بها ، وحملت فيها تجاراتها وبعض جيوشها للفتح والغزو ، ولكنها لم تذهب بعيداً فى المحيطات ، وكان العرب يسمون المحيط الأطلسى ببحر الظلمات رمزاً لما يكتنف داخله من مجهولات مظلمة ، وكذلك كان شأن المحيطين الهندى والهادى .

وبمجرد أن أسَّسَ العرب دولتهم أخذوا يتصلون بالبحار القديمة مثل البحر الأحمر وبحر الروم أو البحر الأبيض المتوسط ، وكان لهم فى الأخير أساطيل تحمى ثغورهم ، وأخذت قوافل التجار تعبره كما أخذت تعبر البحر الأحمر أو بحر القلزم ، وكان فَتْحهم للهند فى عصر مبكر سبباً فى أن يقتحم تجارهم المحيط الذى يدور حولها ، بل لقد أخذوا يقتحمون بحر الصين أو المحيط الهادى .

وكانوا يسقطون إلى الجنوب فيصلون إلى جزائر الهند الشرقية ، وكانوا يسمونها « واق الواق » ويُظَنّ أنهم إنما أطلقوا هذا الاسم على الجزائر اليابانية ، وكأنما وصلوا إلى هذه الجزائر أيضاً . وقد عرفوا مدغشقر ونزلوا بإفريقية الشرقية فى الصومال وجنوبىّ الصومال .

وكانوا يحملون من هذه البلاد والجزائر المختلفة أنواعاً لا حصر لها من عُروض

التجارة ، مما تحصيه لنا اليوم كتب الجغرافيا عن غلّات تلك الجزائر والبلدان . ولسنا بصدد أن نتحدث هنا حديثاً جغرافيا ، إنما يهمنا رحلات القوم البحرية ، وما ساقوا فى وصف رحلاتهم من كتب تحدثت عن عجائب البحار . وأكثر ما دونوا من هذه الكتب كان فى المحيط الهندى والهادى على سواحل الصين ، إذ كانت القوافل ذاهبة آيبة من البصرة وعدن وعمان إلى الهند والصين وما يجاورهما من جزائر ومدغشقر وإفريقية وما بها من زنج وغير زنج .

وكانت الرحلة فى البحر حينئذ تعد متعة حقيقية ، لما تحمل للملاحين والمسافرين من مفاجآت فى رؤية شعوب غريبة وبلاد عجيبة ، بالإضافة إلى ما يحمله الماء نفسه من أسماك وحيوانات بحرية كبيرة وطيور مختلفة ألوانها وحُجُومها . وكان الخوف يلعب بخيال الراحلين فيصور لهم كثيراً من الأوهام حقائق ، ويجسم لهم بعض الحقائق الصغيرة أشياء مفزعة خطيرة . وفى كتاب عجائب المخلوقات للقزوينى صور كثيرة من ذلك كحديثهم عن طائر العنقاء والرّخ والحيوان البحرى المسمى بالوال وبعض الحيوانات البرية التى رأوها بالجزائر مثل الكركدّن الذى شاهدوه فى جزيرة الرامنى ولعلها سومطرة ، واستقصَوا فى الحديث عن اللآلئ وأصداف البحار ، ويختلط فى كل ذلك الواقع بالأسطورة ، والحقيقة بالخيال .

واهتمت كتبهم الجغرافية بالحديث عن البحار التى عرفوها والجزائر والبلدان النائية التى رادوها ، وعنى منذ أول الأمر جماعة من الملاحين والرحالين بحكاية ما شاهدوه فى بعض أسفارهم وما اطلعوا عليه من عجائب وغرائب . ودخلت مادةُ ذلك فى عالم القصص على نحو ما نجد فى قصص السندباد البحرى المشهورة فى ألف ليلة وليلة . ونعرض هنا لأهم رحلاتهم التى دونوها فى كتبهم .

٢

رحلة التاجر سليمان

كان سليمان من تجار العراق الذين ينقلون عُروض الهند والصين إلى البلاد العربية ، وكانت طريقه إلى ذلك المحيط الهندى . فالمحيط الهادى ، وعنى بوصف هذه الطريق وما شاهده فيها من جزائر وغيرها ، فكتب هذه الرحلة التى تعد أقدم ما تحت أيدينا من رحلات العرب البحرية ، فإنه ألفها سنة ٢٣٧هـ/٨٥١م . ولم تصلنا فى كتاب مستقل ، إنما وصلتنا فى كتاب لعراقى عاش فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) يسمى أبا زيد السيرافى ، وقد ذيّل على رحلة سليمان بطائفة من الأخبار عن أهل الهند والصين . جمعها من أقوال الرحالة . ونشر الرحلة وذيّلها بعض المستشرقين باسم «سلسلة التواريخ » .

ولكى نفهم الرحلة لابد أن نعرف أسماء البحار التى كانوا يطلقونها على ما بطريقهم من مياه إلى ميناء خانفو فى الصين . فقد كانوا يسمون الخليج الفارسى باسم بحر فارس ، ويليه بحر لارْوى وهو الجزء من المحيط الهندى جنوبى إيران وشرق الهند ، فبحر الهِرْكَنْد ، وهو جزء المحيط بين جزيرة سرنديب وخليج بنغالة . فبحر كَلاه أو شِلاهطْ المحاذى لجزيرة مَلقا وجزائر الهند الشرقية أو الزابَج . فبحر كُنْدُرَنْج المحاذى لسيام . فبحر الصَّنْف الماس للهند الصينية ، فبحر صَنْخَىْ المحاذى للصين . وعليه تقع خانفو ثغر الصين وهدف ملاحى العرب وتجارهم . وفيه إلى الشرق جزائر واق الواق ولعلها جزائر اليابان .

ويبدأ سليمان رحلته بوصف بحر لارْوى . ويذكر أن به سمكة اصطادوها ،

فكان طولها عشرين ذراعاً وهى سمكة الوال ، ويقص أن به سمكة يحكى وجهها وجه الإنسان وتطير فوق الماء ، وسمكة أخرى كبيرة تبتلع صغار السمك ، وتسقط فى جوفها وكأنما تسقط فى بئر عميقة .

وينتقل إلى بحر الهركند ، فيذكر أن به ألفا وتسعمائة جزيرة وتملكها جميعها امرأة . وبهذه الجزائر عنبر عظيم القدر ، وهو ينبت فى قاع البحر ، وإذا اشتد هيجانه لفظه ، فيجمعه الناس ، وبها نخل النارجيل (شجر جوز الهند) وودع كثير وهو مالهم وتدخره ملكتهم . وآخر هذه الجزائر سرنديب ، وبها مغاص اللؤلؤ ، وفى أرضها جبل يُدْعىَ الرهون ، وعليه هبط آدم عليه السلام ! وحول هذا الجبل معدن الجوهر : الياقوت الأحمر والأصفر والأسمانجونى وفى هذه الجزيرة ملكان . وهى جزيرة عظيمة عريضة ، فيها العود والذهب والجوهر وفى بحرها السمك .

وفى هذا البحر إذا رُكب من سرنديب جزائر ليست بالكثيرة غير أنها واسعة . منها جزيرة يقال لها الرامنى (لعلها سومطرة) فيها عدة ملوك وسعتها يقال ثمانمائة أو تسعمائة فرسخ ، وفيها معادن الذهب . ومعادن تدعى فنصور . يكون الكافور الجيد منها . وتلى هذه الجزيرة جزيرة يقال لها النيان ، وبها ذهب كثير ويأكل أهلها النارجيل وبه يتأدمون ويتدهنون . وإذا أراد أحد منهم أن يتزوج لم يزوجوه إلا برأس رجل من أعدائهم فإذا قتل اثنين زُوّج اثنتين . وكذلك إن قتل خمسين زوجوه خمسين امرأة وإنما يصنعون ذلك لكثرة أعدائهم .

ويلى هذه الجزائر السابقة جزائر تسمى لنجبالوس ، وفيها خلق كثير عُراة رجالا ونساء ، غير أن النساء يسترن عوراتهن بورق من الشجر . وإذا مرت بهم مراكب جاءوا إليها فى قوارب صغيرة وكبيرة ، وبادلوا من يركبونها العنبر والنارجيل بالحديد . ومن وراء هؤلاء الناس جزيرتان بينهما بحر

يقال له أنْدَمان ، وأهلهما يأكلون الناس أحياء ، وهم سود مفلفلو الشعور مناكير الوجوه والأعين ، طوال الأرجل ، قَدَمُ أحدهم مثل الذراع ، عراة ، ليست لهم قوارب ، ولو كانت لهم لأكلوا كل من مرّ بهم .

ويذكر سليمان أنه ربما رُؤى بهذا البحر سحاب أبيض يتدلى منه لسان طويل رقيق حتى يمس ماء البحر ، فيغلى وتدور به زوبعة لا تأتى على مركب إلا ابتلعها . ويقول إن بهذه البحار رياحا عاصفة ، كثيراً ما تهيج فتحطم السفن تحطيما ، ويزعم أن هناك سمكاً يدعى اللخم ، وهو سبع يبتلع الناس .

ويصل بنا إلى خانفو ، ويقص أن بها جالية كبيرة من المسلمين وأن بها شيخاً يولّيه صاحب الصين الحكم على المسلمين ، الذين يقصدون إلى ذلك المرفأ ، وإذا أهلّ العيد صلى بالمسلمين وخطب ودعا لسلطانهم العباسى ، وقال إن تجار العراق لا ينكرون شيئاً من أحكامه وأنه يحكم بكتاب الله وما شرعه الإسلام .

ويعود سليمان فيتحدث عن الثغور والمواضع التى تمر بها السفن من حين إقلاعها من البصرة أو من ثغر سيراف إلى بحر كَلاه المسامت لشبه جزيرة ملقا ، ولباس أهلها الفُوَط . ثم تخطو السفن إلى بحر كندرنج فبحر الصنف ، وهو بحر الهند الصينية ، ومنها كانوا يجلبون العود الصنفى ، وتتقدم السفن إلى بحر صَنْخَىْ وهو بحر الصين حيث مرفأ خانفو .

ويتكلم بعد ذلك سليمان عن بلاد الهند والصين وملوكهما ويسوق طائفة من الأخبار الطريفة تارة عن الملوك وتارة عن أحوال الناس وطباعهم وحياتهم الاجتماعية ومعاملاتهم وإدارة حكوماتهم ودياناتهم وما يعبدون من الأوثان والأصنام . ويقف كثيراً ليقارن بين أهل الهند والصين ، فمن ذلك قوله :

« أهل الصين أهل ملاه وأهل الهند يعيبون الملاهى ولا يتخذونها ولا يشربون الشراب ولا يأكلون الخلّ لأنه من الشراب ، وليس ذلك ديناً ولكنه أنفة ،

ويقولون أى ملك شرب الشراب فليس بملك ، وذلك أن حولهم ملوكاً يقاتلونهم فيقولون كيف يدبّر أمر ملكه من هو سكران ؟ . . . وأهل الهند والصين إذا أرادوا التزويج تهانئوا بينهم ، ثم تهادوا ، ثم يشهرون التزويج بالصنوج والطبول ، وهديتهم من المال على قدر الإمكان ... و [جزاء] السَّرَق فى جميع بلاد الصين والهند ، فى القليل منه والكثير القتل . وحيطان أهل الصين الخشب وبناء أهل الهند حجارة وجصّ وآجرّ وطين ، وربما كان ذلك بالصين أيضاً . وليس الصين ولا الهند بأصحاب فرُش ، ويتزوج الرجل من الصين والهند ما شاء من النساء . وطعام الهند الأرز وطعام الصين الحنطة والأرز ، وأهل الهند لا يأكلون الحنطة . وأهل الصين يعبدون الأصنام ويصلّون لها ، ويتضرعون إليها ، ولهم كتب دين . والهند يطيلون لحاهم ، ربما رأيت لحية أحدهم ثلاثة أذرع ولا يأخذون شواربهم ، وأكثر أهل الصين لا لحى لهم خلقةً لأكثرهم . وأهل الصين والهند يزعمون أن البدّدة (الأصنام) تكلمهم وإنما يكلمهم عُبّادهم . والصين والهند يقتلون ما يريدون أكله ولا يذبحونه ، فيضربون هامته حتى يموت . وللهند خيل قليل وهى للصين أكثر ، وليس للصين فيلة ، ولا يتركونها فى بلادهم تشاؤما بها . وبلاد الصين أصحّ وأقل أمراضاً وأطيب هواء لا يكاد يُرَى بها أعمى ولا أعور ولا من به عاهة . وأنهار البلدين جميعاً عظام ، فيها ما هو أعظم من أنهارنا ، والأمطار بالبلدين جميعاً كثيرة . وأهل الصين أجمل من أهل الهند وأشبه بالعرب فى اللباس والدواب ، وهم فى هيئتهم وفى مواكبهم يشبهون العرب ، يلبسون الأقبية والمناطق . وأهل الهند يلبسون فوطتين ويتحلّون بأسورة من الذهب أو الجوهر . . »

وعلى هذا النحو نقرأ عند التاجر سليمان وصفاً طريفاً للبحار السبعة التى كانت تجتازها السفن إلى الصين كما نقرأ عنده أخباراً كثيرة عن حياة الناس فى الصين والهند ، وقد تنبه فى الأولى إلى شراب الشاى المعروف ، ولم يكن

العرب قد عرفوه بعد، فقال: إن عند أهل الصين حشيشاً يشربونه بالماء الحارّ ويقال له السّاخ وهو أكثر ورقاً من الرُّطَبة وأطيب قليلا، وفيه مرارة، ويُغْلَى الماء ويُذَرّ عليه منه، وهو ينفعهم من كل شيء.

٣

عجائب الهند برّه وبحره وجزائره لبزُرْك بن شَهْرِيار النّاخُدَاه.

نشر بعض المستشرقين هذا الكتاب فى ليدن سنة ١٨٨٦، ومؤلفه كما يدل عليه لقبه «الناخداه» كان رُبّاناً يحترف ملاحة السفن، وتدل حكاياته التى يرويها فى الكتاب أنه كان يعيش فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وهى حكايات يرويها عن بعض الملاحين الذين جابوا المحيط الهندى والهادى، وفيها ما يدل على أن الكتاب زيدت فيه أقاصيص عن عصور متأخرة عن عصر المؤلف، وكأنما أُعْجب القصاص والرواة بالكتاب، فزادوا فيه على نحو ما كانوا يزيدون فى كتب القصص مثل ألف ليلة وليلة. وبذلك أصبح هذا الكتاب قصة مَلاّحى العرب فوق مَتْن المحيطين الهندى والهادى على توالى العصور وما شاهدوا فيهما من عجائب الملاحة وغرائب العواصف، وما أبصروه من حيوانات وأسماك بحرية وطيور ونسور مائية. ونحن لا نكاد نمضى فيه حتى نقرأ هذا الخبر عن سمكة من نوع الوال.

«فى سنة ثلاثمائة وقعت سمكة ببعض سواحل عُمان، وجزَر الماء عنها، فصيدت وسُحبت إلى البلد... وحضر الناس للنظر إليها، وكان الفارس يدخل من فَكّها ويخرج من الجانب الآخر، وهو راكب، لعظمها، فإنها ذُرعت، فكان طولها زيادة على مائتى ذراع، وارتفاعها نحو خمسين ذراعاً، وبيع

من دُهْن عينيها على ما قيل ببضع عشرة آلاف درهم ... وهذا السمك كثير ببحر الزَّنْج ، ويقال له الوال، وهو بكسر المراكب مولع ، فإذا تعرض للمركب ضربوا الخشب بعضه ببعض، وصاحوا وضربوا الطبول ، وإنه ربما نفخ الماء ، فيرتفع مثل المنار ويَبين من بعد مثل شراع المراكب ، وربما لعب بذَنبه وأجنحته ، فيُرَى من بعد أيضاً مثل شراع القوارب » .

ويستمر فى قصص عن بعض الحيوانات البحرية ، ثم يروى لنا هذا الوصف الطريف لعاصفة ألمت ببعض الملاحين فى بحر الملاتو بالقرب من الصين ، إذ ضلت بهم سفينتهم وكادوا يموتون غرقاً ، لولا أن امتدت إليهم يد الرحمة من السماء ، فأنقذتهم بعد جهد جهيد ، يقول :

« سافر رجل فى مركب له عظيم ، ومعه فيه خلق من أخلاط التجار من كل بلد ، وهم يسيرون فى بحر ملاتو وقد قربوا من أطراف أرض الصين ، وأبصروا بعض جبالها ، فلم يشعروا إلا وريح قد خرجت عليهم من الجهة التى يقصدونها ، فلم يسعهم إلا الانصراف معها حيث توجهت ، وركبهم من هول البحر ما لا طاقة لهم به ، ومرت بهم الريح إلى سَمْت سُهَيْل (نجم) . ومن اضطُرَّ فى ذلك البحر إلى أن يصير سهيل على قمة رأسه فقد دخل بحراً لا رجعة له منه ، وتنكَّس فى لجة هابطة إلى الجنوب تصوّبه إلى تلك الجهة ، فكلما مرت المركب عَلا ماوراءها من جهتها ، وهبط ما بين يديها من تلك الجهة ، فلا تستطيع الرجوع بريح عاصف ولا غيره ، وهوتْ فى لجج البحار المحيطة ، فلما رأوا أمرهم يؤدى إلى الدخول تحت سُهَيْل ودخل عليهم الليل وأظلم وادلهمّ ، وحال بُخار البحر ودُجُنَّته ونداه وزَخره (ارتفاع مياهه) بينهم وبين النَّجاة ، فلم يروا ما يهتدون به ، وهول البحر وأمواجه ترفعهم إلى السحاب ، وتخفضهم إلى التراب ، وهم يجرون فى قار وضباب طول ليلهم . وأصْبح عليهم ، فلم يشعروا بالصباح لشدة ظلمة ما هم فيه ، واتصال قار البحر

مع ضباب الجو وغِلَظِ الريح وكدورته . فلما طال عليهم الليل وهم يجرون فى قبضة الهلكة ، قد حُكِّم عليهم الريح العاصفة والبحار الزاخرة والأمواج الهائلة ، ومركبهم يَئِطّ (يصوّت) ويئن ويتقعقع ويتتعتع توادعوا ، وصلى كل منهم إلى جهة على قدر معبوده ، لأنهم كانوا شيعاً من أهل الصين والهند والعجم والجزائر ، واستسلموا للموت . وجرّوا كذلك يومين وليلتين لا يفرقون فيها بين الليل والنهار . فلما كانت الليلة الثالثة وانتصف الليل رأوا بين أيديهم ناراً عظيمة قد أضاءت الأفق فخافوا خوفاً شديداً ، وفزعوا إلى رُبّانهم ، وقالوا له : يا رُبّان ما ترى هذه النار الهائلة التى ملأت الآفاق ، ونحن نجرى إلى سمّها ، وقد أحاطت بالأفق ، والغرق أحب إلينا من الحريق ، فبحق معبودك إلا قلبتَ بنا المركب فى هذه اللجة والظلمة ، لا يرى أحد منا الآخر ، ولا يدرى ما كانت ميتته ، ولا يتجرع لوعة صاحبه ، وأنت فى حِل وبِلٍّ مما يجرى علينا ، فقد متنا فى هذه الأيام والليالى ألف ألف ميتة ، فميتة واحدة أرْوَحُ ، فقال لهم : اعلموا أنه قد يجرى على المسافرين والتجار أهوال ، هذا أسهلها وأرحمها ، ونحن معشر الربابنة علينا العهود والمواثيق أن لا نعرض سفينة إلى العطب وهى باقية لم يَجُرْ عليها قدَر ، ونحن معشر ربابنة السفن لا نطلعها إلا وآجالنا وأعمارنا معنا فيها ، فنعيش بسلامتها ونموت بعطبها ، فاصبروا واستسلموا لملك الريح والبحر الذى يصرّفهما كيفَ يشاء . فلما أيسوا من الربان ضجوا بالبكاء والعويل ، وندب كل منهم شجوه — وصار الربان إذا أمر مناديه أن ينادى رجاله بجذب حبل أو إرخائه ليصلح شأن المركب لا تسمع الرجال ذلك من دوىّ البحر وحِسٍّ تلاطم الأمواج وهدير الرياح فى القلوع والشُّرُع والحبال وضجيج الخلائق . فأشرف المركب على التلف . . . وكان فى المركب شيخ مسلم من أهل قادس من الأندلس قد طلع إلى المركب فى ازدحام الناس عند طلوعهم ليلة السفر ، ولم يشعر به رُبان المركب ، وكان فى زاوية من المركب مهجورة ، وهو مختف فيها ، خوفاً

أن يـُعْلَم به فيؤنَّب ويوبَّخ ، فلما رأى القومَ وما نزل بالناس وما هم عليه من الإخطار بأنفسهم ومركبهم ، وأنهم قد صاروا عوناً مع أهوال البحار على أنفسهم مسرعين لهلاكهم رأى أن يخرج إليهم ، فيكون من حاله معهم ما كان ، فخرج إليهم وقال لهم : ما شأنكم ، أنفتح المركب ؟ قالوا لا ، قال فانكسر السُّكَّان ؟ قالوا لا ، قال فركبكم البحر ؟ قالوا لا ، قال فما بشأنكم ؟ قالوا له كأنك لستَ معنا فى المركب ، أما تنظر هول هذا البحر وأمواجه وظلمة الهواء الذى لم نر معه نهاراً ولا شمساً ولا قمراً ولا نجوماً نهتدى بها ، وقد دخلنا تحت سُهيل ، وحكمت البحار والرياح علينا ؟ وأشدّ ما علينا هذه النار التى نحن نجرى إليها ، وقد ملأت الأفق ، والغرق أهون علينا من الحريق ، وقد سألنا الربَّان أن يقلب المركب بنا فى البحر والظلمة ، لا يرى واحدٌ منا إلى صاحبه ، ونموت غرقاً ولا نموت حرقاً يرى بعضنا بعضاً ونسمع ما تفعل النار فيه ، فقال : أوصلونى إلى الربان ، فأطلعوه إليه ، فسلَّم عليه بالهندية ، فرد عليه وتعجب منه ونظر إليه ، وقال له : من أنت من التجار أم من أتباعهم ، فلا نعرفك فى رجال المركب ؟ قال له ما أنا من التجار ولا من أتباعهم ، قال فمن أطلعك ؟ وما بضاعتك ؟ قال له أما من أطلعنى فإنى طلعت فى جمهور الناس ليلة الإسراء (السفر) وأويتُ إلى مكان فى المركب ، قال : من أين تأكل ومن أين تشرب ؟ قال كان يوضع كل يوم قريباً منى صحفة أرز بسمنٍ لملائكة المركب وماءٌ ، فكنت أتقوّت بذلك ، وأما بضاعتى فقرْبة عَجْوة ، قال : فتعجب الربان منه ، واشتغل الناس بسماع حديثه عما كانوا فيه من الضجيج . وأصلح الرجال أدوات المركب ، ومشى فيهم مناد بتدبير الأقلاع ، واهتدى المركب فقال الشيخ : يا رُبان ما لهؤلاء القوم كانوا يبكون ويـُعْوِلون ؟ قال له : أما ترى ما نزل بهم من هول البحار والرياح والظلمة ، وأشد من ذلك ما نحن مدفوعون إليه من هذه النار التى ملأت الأفق ،

والله لقد ركبت هذا البحر وأنا دون البلوغ مع أبى ، وكان قد أذهب عمره فى ركوبه ، وها أنا اليوم قد رميت ثمانين سنة ورائى فما سمعت بمن سلك هذا المكان ، ولا خَبَّر عنه ، فقال : يا رُبان لا بأس عليك ولا خوف ، نجوتم بقدرة الله ، هذه جزيرة يحيط بها ويكنفها جبال ، ينكسر عليها أمواج البحار المحيطة بالأرض فتنظَرُ فى الليل نار هائلة يخافها الجاهل ، فإذا طلعت الشمس ذهب ذلك المرأى وعاد ماءً . . . فتباشر الناس وسكنوا إلى قول الشيخ وتناولوا طعامهم وشرابهم وذهب عنهم ما كانوا فيه من الغم والخوف ، وتناقص الريح ، وصار رَهْواً (سهلا) والريح رَخْواً وقدموا على الجزيرة مع شروق الشمس وأصحت السماء . . . وتخيروا مُرْسًى كَنينا (مستترا) ووردوا الجزيرة بجملتهم وكانوا يطرحون أرواحهم على الرمال ويتمرغون على الأرض شوقاً إليها ، ولم يبق منهم فى المركب أحد .)

وهذا تصوير رائع لعاصفة من العواصف التى كانت تلم ببعض السفن حين يسقطون من المحيط الهندى إلى المحيط الهادى ، فتدفعهم الريح من كل جانب ، وتأخذهم الأهوال من كل فَجٍّ ، ويصبحون كأنهم معلقون على وجه الماء بيد الأقدار ، فإما إلى قاع البحر وإما إلى النجاة بأرواحهم . ونمضى مع بُزُرْك فنقرأ عجائب وغرائب كهذه الحكاية التى يحكيها عن بعض السلاحف الكبيرة التى يُظَنّ أحياناً أنها جزيرة فى وسط البحر ، وهى سلحفاة عائمة ، يقول :

« إنه سمع بعض شيوخ المراكب يحدِّث أن مركباً خرج من بلاد الهند إلى بعض النواحى فذهب من يد صاحبه بقوة الريح ، وعيِيَ المركب ، فقدموا إلى جزيرة صغيرة لم يجدوا فيها ماء ولا شجراً ، ودفعتهم الضرورة إلى المقام فيها ففرَّغوا حمولة المركب إلى الجزيرة ، وأقاموا مدة ، حتى أصلحوا العيب ، وردوا الحملَ إلى المركب ، وعزموا على الخطوف (السير) فاتفق

لهم يوم نوروز (عيد الربيع) فجمعوا من خشيبات معهم وخوص وقماش وأوقدوه ، فتحركت الجزيرة من تحتهم ، وكانوا بقرب الماء ، فرموا أنفسهم إليه ، وتعلقوا بالقارب ، وغاصت الجزيرة ، فلحقهم من اضطراب البحر بحركتها ما أشرفوا به على الغرق ، وسلموا بعد تعب شديد وهول عظيم ، وإذا بها سلحفاة قائمة على وجه الماء ، ولما أحست بحرّ النار ولذعها هربت . وسألتُ عن السبب فى ذلك ، فقيل إن السلحفاة لها أيام فى كل عام تطفو فيها على وجه الماء على سبيل الاستراحة من طول مقامها فى كهوف الجبال ، وفى البحر غابات وأشجار هائلة أهول وأعظم من شجرنا فوق الأرض ، فتخرج على وجه الماء ، وتمكث أياماً وتسدّر (يغيب وعيها) كالسكران ، فإذا رجعت إليها نفسها وسئمت ما هى فيه غاصت . . . »

ويخرج من حديث السلاحف إلى أحاديث طويلة عن حيات الهند وغيرها وحيوانات البحر وما رأى الملاحون من غرائب الطير ، وأثناء ذلك يقص أخباراً عن بعض البلدان فى آسيا وإفريقية مما يلى البحار ، ويتحدث عن السكان وأوصافهم وعباداتهم ، كما يتحدث عن طُرَف البحر من اللآلئ وغير اللآلئ ، وما صاده الغواصة منها . ومن طريف ما يرويه خَبَرُ دُرَّةٍ تسمى الدرة اليتيمة ، بيعت لهارون الرشيد ، باعها له رجل من عُمان ، يقول :

« كان بعمان رجل يقال له مُسلم بن بشر ، وكان رجلا مستوراً جميل الطريقة ، وكان ممن يجهز الغواصة فى طلب اللؤلؤ ، وكانت بيده بضاعة ، فلم يزل يجهز الرجال للغوص ، ولا يرجع إليه فائدة ، حتى ذهب جميع ما كان يملكه ، ولم يبق له حيلة ولا ذخيرة ولا ثوب ولا شىء يجوز بيعه ، إلا خلخالا بمائة دينار لزوجته ، فقال لها : أقرضينى هذا الخلخال لأجهز به ، فلعلّ الله تعالى يسهّل شيئاً ، فقالت له : يا هذا الرجل لم تبق لنا ذخيرةٌ ولا شيئاً نعوّل عليه ، وقد هلكنا وافتقرنا ، فلأن نأكل بهذا الخلخال أصلح من أن

نُتلفه فى البحر ، فتلطف بها ، وأخذ الخلخال ، وصرفه ، وجهز بجميعه الرجال إلى الغوص وخرج معهم . ومن شرط الغوص أن يقيم الغواصة فيه شهرين لا غير ، وعلى هذا يتشارطون ، فأقاموا يغوصون تسعة وخمسين يوماً ويخرجون الصدف ، ويفتحونه ، فلا يحصل لهم شىء . فلما كان فى اليوم الستين غاصوا على اسم إبليس لعنه الله ، فوجدوا فيما أخرجوه صدفةً ، استخرجوا منها حبّةً لها مقدار كبير ، لعل ثمنها يوفى بجميع ما كان يملكه مسلم منذ كان إلى وقته . فقالوا هذا وجدناه على اسم إبليس لعنه الله ، فأخذها وسحقها ، ورمى بها فى البحر ، فقالوا له : يا هذا الرجل لمَ فعلت أنت هذا ؟ قد افتقرت وهلكت ولم يبق لك شىء يقع بيدك مثل هذه الحبّة التى لعلها تساوى آلاف الدنانير ، فتسحقها ؟ ! فقال : سبحان الله كيف أستحل أن أنتفع بمال استُخرج على اسم إبليس وأنا أعلم أن الله تبارك وتعالى لا يبارك فيه ، وإنما وقعت هذه الحبة بأيدينا ليختبرنا الله بها ويعلم من يعرف خبرها اعتقادى ، ولئن انتفعت بها ليقتدين كلُّ أحد بى ، فلا يغوصون إلا على اسم إبليس لعنه الله ، فإثم ذلك يعظم على كل فائدة وإن عظمت ، ووالله لو كان مكانها كل لؤلؤ فى البحر ما تلبّسْتُ به ، امضوا فغوصوا وقولوا باسم الله وببركة الله . فغاصوا على ما رَسَم لهم ، فما صَلّى صلاة المغرب من ذلك اليوم وهو آخر يوم من الستين حتى حصل بيده دُرَّتان ، إحداهما اليتيمة ، والأخرى دونها بكثير ، فحملهما إلى الرشيد ، وباع اليتيمة بسبعين ألف درهم والصغرى بثلاثين ألف درهم ، وانصرف إلى عُمان بمائة ألف ، فبنى بها داراً عظيمة ، واشترى ضياعاً واعتقر عَقاراً ، وداره معروفة بعُمان . »

والكتاب ملىء بحكايات عن أحوال الناس فى جزائر المحيط الهندى وعلى ضفافه فى الزنج وغير الزنج ، وهو فى أثناء هذه الحكايات يعطينا كل ما تختص به البلاد من عادات ، وقد أطال فى وصف عُبّاد الهند وكهنتها

وبيوت عباداتها وسحرتها وثيابهم وتعاويذهم ، ومن طريف ما يقصه عن الفيلة هنالك هذا الوصف الدقيق ، قال :

« أخبرنى بعضهم أنه شاهد ببعض بلدان الهند فيلة تتصرف فى حوائج أربابها وأن الفيل يُدْفَعُ إليه الوعاء الذى يشترى فيه الحوائج ، وفيه الوَدَع وهو نقد القوم وأنموذج الحاجة كائناً ما كانت ، فيكون معه فى الوعاء شىء من ذلك الجنس والنقد ، ويمضى إلى البقال ، فإذا رآه البقال نزل من جميع شغله ولو كان على رأسه من يشترى منه كائناً من كان ، وأخذ الوعاء من الفيل فعدّ الودع الذى فيه ، ونظر ما يريد بأنموذج متاعه ، ودفع إليه أجود ما عنده من ذلك النوع بأرخص سعر ، ويستزيده فيزيده ، وربما عدّ البائع الودع ، فغلط فيه ، فيشوشه الفيل بخرطومه ، فيعدّ البقال عدة ثانية ، ويمضى الفيل بما اشتراه ، فربما استقلّه صاحبه ، فيضربه ، فيعود إلى البقال ، فيشوش متاعه ويخلط بعضه ببعض ، فإما أن يزيده أو يردّ عليه الودع . وإن الفيل الذى هذا صورته يكنس ويرشّ ويدق الأرز بمدقة ، يأخذها بخرطومه ، فيدق ، ورجل يجمع عليه الأرز ، حتى يطحنه . ويستقى الماء وذلك أنه يأخذ الوعاء الذى يستقى فيه الماء،وفى الوعاء حبل مشدود يُدخل خرطومه فيه ويحمله . ويقضى جميع الحوائج ، ويركبه صاحبه فى حوائجه البعيدة . ويركبه الصبى ، ويمضى عليه إلى الصحراء ، فيقطع الحشيش وورق الشجر بخرطومه ، ويدفعه إلى الصبى ، فيجمعه فى وعاء معه ، ويحمله ، فيكون ذلك طعامه ، وإنه إذا كان على هذه الصفة يبلغ مالا عظيما ، وقيل عشرة آلاف درهم . »

ويتعرض لصناعات أهل الهند والصين ، وخاصة ما يتقنه الأخيرون من النقش والتصوير ، ومن الغرائب التى رواها عن إحكام الصينيين لصناعة الورود والرياحين فى نسيج بارع ما ضمنه هذه الحكاية عن بعض التجار قال :

« أدخلنى باغ بور (ابن ماء السماء) ملك الصين إلى بستان بخانفو مقدار عشرين جريبا (مزرعة) فيه نرجس ومنثور وشقائق وورد وسائر الأنوار (الأزهار) فعجبت من اجتماع أنوار الصيف والشتاء فى وقت واحد فى بستان واحد ، فقال لى : كيف ترى ؟ فقلت ما رأيت حسنة إلا وهذا أحسن ولا طُرْفة إلا وهذا أطرف منها، فقال لى : جميع ما ترى من الأشجار والأنوار معمولة من الحرير ، فتفقدته بعد أن قال لى هذا ، فوجدت الورق والأنوار من الحرير الصينى ، قد عُمل وضفّر وحُبك ونسج وسُوِّى على هذه الصورة ومن رآه لم يشك فيه أنه شجر ونَوْر لا يغادر شيئاً . . . »

ويقص أحاديث طويلة عن طيور الجزائر الهندية وبلاد الزنج ، ويختلط فى قصصه الخيال بالحقيقة ، على نحو ما نجد فى الخبر التالى ، إذ يقول :

« إن بسُفالة الزنج من الطيور ما يأخذ الوحش بمنقاره أو بمخالبه ، ويحمله إلى الهواء ، ثم يرمى به ليموت وينكسر . ثم ينزل عليه فيأكله ، ولقد سمعت أن فى بلاد الزنج طائراً ينقضّ على السلحفاة الكبيرة . فيخطفها ويرفعها إلى الجوّ ويرمى بها إلى الأرض على جبل أو صخرة ، فتنكسر ، فيسقط عليها فيأكلها ، ويأكل منها ، إذا وجد فى النهار ، الخمس والست ، وأن هذا الطائر إذا رأى الإنسان هرب منه، وفرّ من صورته لبشاعة خلق الناس فى تلك الأرض » .

وطرافة هذا الخبر فى خاتمته وما تحمل من تهكم ، وكثير من القصص الذى مر وقصص الكتاب يتضمن مواعظ ومعانى إنسانية . ومن هنا تأتى طرافة هذا الكتاب وحكاياته البحرية ، وإنه ليسوق فيها كل ما يحمله البحر من أصداف وأسماك وحيوانات ، وكل ما تحمله بروره وشطآنه وجزائره من غرائب الإنسان والطير والحيوان من قرود وغير قرود .

٤

رحلة الفتية المغرّرين

رأينا الكتاب السابق يزخر بأخبار الملاحين والربابنة الذين جابوا المحيطين الهندى والهادى شرقى الصين . أما المحيط الأطلسى فإن العرب لم يلجّجوا فيه ، إذ كان بعيداً عنهم ، ومع ذلك يُظَنّ أن عرب الأندلس اقتحموا هذا المحيط ، وإن كانوا لم يتغلغلوا فيه ، بل إنه يوجد بين الباحثين من يظن أنهم وصلوا إلى أمريكا قبل كولومبوس .

وليس بين أيدينا ما يدل دلالة قاطعة على أن الأندلسيين قاموا بذلك فعلا ، على أنهم إن كانوا لم يقوموا به فإنهم هم الذين هيئوا له ، إذ قاموا برحلات مختلفة على الساحل الإفريقى الغربى ، وربما عرفوا جزائر أزورا وماديرا وكنارى .

وأمامنا من رحلاتهم فى هذا المحيط الذى كانوا يسمونه بحر الظلمات رحلة رواها الإدريسى فى كتابه « نزهة المشتاق » إذ روى أنه لا يزال معروفاً إلى عصره فى أشبونة (لشبونة) رحلة فتية غرروا بأنفسهم ، فركبوا البحر المظلم ، وظلوا فيه أشهراً ، ثم عادوا ، وكان ذلك فى القرن الرابع للهجرة (العاشر الميلادى) وكان لا يزال باسمهم إلى وقته دَرْبٌ فى مدينتهم سُمِّىَ باسمهم ، وهم ثمانية رجال كانوا أبناء عمومة ، أعدّوا مركباً كبيراً ، وزودوه بالماء والمتاع ، ثم دخلوا البحر مع هبوب الرياح الشرقية ، وأجروا فيه مركبهم نحو أحد عشر يوماً ، ولم يلبثوا أن انتهوا إلى بحر مجهول غليظ الموج كدر الرائح كثير الربوش (الأعشاب) والضباب ، فأيقنوا بالتلف ، وسارعوا إلى تغيير وجهتهم ،

فداروا إلى الجنوب ، وظلوا كذلك اثنى عشر يوماً ، حتى وقعوا إلى جزيرة كثيرة الغنم ، فرسَوا عليها ونزلوا بها ، ووجدوا بعض أشجار التين ، ومياهها جارية ، فاطمأنوا إلى المكان ، وأخذوا شاة فذبحوها وأعدوها لطعامهم ، ولكنهم لم يستطيعوا أكلها لمرارة لحمها ، فعادوا إلى سفينتهم ، وأقلعوا إلى الجنوب ، وساروا اثنى عشر يوماً فتراءت لهم جزيرة فيها عمارة وحَرْث ، فنزلوا بها ، ولم يلبثوا أن رأوا رجالا يحيطون بهم ، أجبروهم على التسليم ، وحملوهم معهم إلى مدينة رأوا بها رجالا شقراً ، شعورهم سَبْطة ، وهم طوال القدود لنسائهم جمال عجيب . واعتقلوهم فى دار ، ظلوا بها ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع دخل عليهم رجل يتكلم بلسانهم العربى ، فسألهم عن حالهم ، وغايتهم ، ومن أين جاءوا . فأخبروه بقصتهم ، فطمأنهم ووعدهم خيراً ، وقال لهم إنه ترجمان الملك وفى اليوم التالى أُخذوا إلى حضرة هذا الملك ، وسُئلوا عن وجهتهم ، فقالوا إنهم خرجوا فى البحر لرؤية عجائبه وخوارقه ، وليقفوا على نهايته .

وضحك الملك حين سمع منهم ذلك ، وقال لترجمانه : أخبرهم أن أبى أمر طائفة من عبيده أن يسيروا فى البحر ، ويحاولوا أن يعرفوا شيئاً عما فى داخله ، وأنهم ساروا فيه شهراً ، ثم عادوا بخُفَّىْ حنين ، وقال الملك لترجمانه سَكِّنْ جأشهم ، وعِدْهم خيراً . ثم أخذ بهم إلى معقلهم ، فظلوا فيه إلى أن نشطت الريح الغربية ، فأخرجوهم فى زورق بعد أن عصبوا أعينهم ، وجروا بهم فى البحر نحو ثلاثة أيام ، وأخيراً ألقوا بهم إلى شاطئ أرض لم يكونوا يعرفونها ، وتركوهم مكتّفين ، يبكون مصيرهم .

وبينما هم فى ضنك وسوء حال إذ سمعوا ضوضاء وجلبة أناس ، فصاحوا بأجمعهم ، وسمعهم القوم ، فأقبلوا عليهم ، فوجدوهم على هذه الحال السيئة ، فحلوا عنهم وثاقهم ، وسألوهم عن شأنهم ، فأخبروهم قصتهم ، وكانوا من البربر ، فأعلموهم أن بينهم وبين بلدهم مسيرة شهرين . وبعد أهوال ومخاطرات

وصلوا إلى بلدهم ، فأطلق عليهم الناس اسم الفتية المغرّرين ، يقصدون أنه غُرِّرَ بهم فى مجازفات ومغامرات غير مجدية .

والمظنون أنهم وصلوا إلى بعض الجزائر فى المحيط الأطلسى ، ولعلهم وصلوا إلى جزائر أزورا وكنارى ، وقد دُفعوا إلى إفريقية ، حيث التقوا بطائفة من البربر ، ثم عادوا إلى ديارهم بعد أن ذاقوا وبال رحلتهم فى بحر الظلمات ، بحر الألغاز والطلاسم . ونظن ظنا أن رحلات أخرى قام بها الأندلسيون بعد ذلك فى هذا الاتجاه ، ولكنها لم يكتب لها النجاح ، شأنها شأن رحلة الفتية المغرّرين ، وكأنما كان القدر يدّخر مفاجأة اكتشاف العالم الجديد لكولمبوس أعظم الرحالين والملاحين .

٥

عرائس البحر

تشترك الأمم القديمة فى أساطير بحرية ، تجعل البحار غاصة بأحياء ، صورتهم بين الإنس والحيوانات المائية ، وألّهتْ بعض الأمم هذه الصور الخيالية . ولما تحول الإنسان من حياته الوثنية إلى حياته الدينية السماوية رافقته أساطيره القديمة . وتمتزج هذه الأساطير عند العرب بأخبارهم فى مجاهل البحار وما يقصّونه عن هذه المجاهل ، بل إننا نجد أطرافاً منها منثورة فى كتب الجغرافيا مثل كتاب البلدان لابن الفقيه ، ففيه هذا الخبر عن الإسكندرية ، يقول :

« كانت الإسكندرية بيضاء تضىء بالليل والنهار ، وكانوا إذا غربت الشمس لم يخرج منهم واحد من بيته ، ومَنْ خرج اختُطف ، وكان لهم راع

يرعى الغنم على شاطئ البحر ، وكان يخرج من البحر شيء فيأخذ من غنمه ، فكمن له الراعى فى بعض المواضع ، حتى خرج ، فإذا جارية ، فتشبَّث بشعرها ، ومنعته ، فذهب بها إلى منزله ، فأنست بهم ، ورأتهم لا يخرجون بعد غروب الشمس ، فسألتهم عن ذلك ، فأخبروها أن من خرج فى ذلك الوقت اختُطف ، فعملت لهم الطلسمات ، وكانت أول من وضع الطلسمات بمصر » .

وفى كتابى القزوينى « آثار البلاد » و « عجائب المخلوقات » كثير من الأساطير التى تُرْوَى عن عرائس البحر ، ومما يقصه عن الهند بحيرةٌ يجرى وصفها فى كتابه « آثار البلاد » على هذا النحو :

« هى بحيرة مقدار عشرة فراسخ فى مثلها ، ماؤها ينبع من أسفلها ، لا يأتيها شيء من البحار ، وفى تلك البحيرة حيوانات على صورة الإنسان ، إذا كان الليل يخرج منها عدد كثير ، يلعبون على ساحل البحر ويرقصون ويصفقون باليدين ، وفيهم جوار حسناوات ، ويخرج منها أيضاً حيوانات على غير صورة الإنسان عجيبة الأشكال ، والناس فى الليلة القمراء يقعدون من بعيد وينظرون إليهم ، وكلما كان النظَّار أكثر كان الخارجون أكثر ، وربما جاءوا بالفواكه الكثيرة ، وأكلوها ، وتركوا ما فضل منهم على الساحل .. »

وتتضخم أسطورة عرائس البحر عند القزوينى وغيره من الجغرافيين ، فيجعلون لها جزيرة خاصة بها فى أقصى المحيط الهندى أو لعلها فى المحيط الهادى ، وقد مر بنا وصف القزوينى لهذه الجزيرة فى كتابه « آثار البلاد » ويجعل بعض كُتَّاب العرب هذه الجزيرة بين جزر واق الواق التى كانوا يقصون عنها أساطير كثيرة ، ويقدم لنا بُزُرك بن شهريار فى كتابه « عجائب الهند » تعليلا لاختصاص هذه الجزيرة بالنساء ، فيحكى عن إحداهن أنه كان قد تشبث بها بعض الملاحين ، ونقلها عن جزيرتها إلى البلاد العربية ، وأقامت المرأة معه وأسلمت ورُزق منها الأولاد ! فسألها عن تلك الجزيرة ،

والسبب الذى جعلهن ينفردن بها دون الرجال ، فقالت :

« نحن أهل بلادواسعة ومدن عظيمة محيطة بهذه الجزيرة ، ومسافة ما بين كل بلد من جميع بلادنا وبين هذه الجزيرة ثلاثة أيام بلياليها ، وكل من فى أقاليمنا ومدننا من الملوك والرعايا يعبدون النار التى تظهر لهم فى جزيرتنا ، ويسمونها بيت الشمس ، لأن الشمس تشرق من طرفها الشرقى وتغرب فى جانبها الغربى فيظنون أنها تبيت فى هذه الجزيرة . . . فيعبدونها ويقصدونها بصلاتهم وسجودهم من سائر الجهات . ثم إن الله سبحانه وتعالى جعل المرأة فى بلدنا تلد أول بطن ذكراً ، وثانى بطن أنثيين ، وكذلك باقى عمرها ، فما أقل الرجال فى بلادنا وأكثر النسوان ! . فلما كثرن وأردن أن يغلبن على الرجال ، صنعوا لهن المراكب وحملوا منهن آلافاً ، وطرحوهن فى هذه الجزيرة ، ويقولون للشمس : يا ربهن أنت أحق بما خلقت ، وليس لنا بهن طاقة . . . وإن بلادنا فى البحر الأعظم تحت سُهيل لا يقدر أحد أن يجىء إلينا . . . خوفاً من أن تشربه البحار ، وذلك تقدير العزيز العليم ، تبارك الله أحسن الخالقين » والنساء نساء حقيقية فى هذه القصة ، ولكن بجانب هذه القصة فى « عجائب الهند » قصة أخرى تعود بهن إلى عالم الماء ، وتسمى جزائرهن جزائر الحوت ، فقد حدّث بعض الملاّحين عن أبيه ، قال :

« أسريتُ فى مركب لى كبير ، ونحن طالبون جزيرة قنْصور . . . وأدخلنا التيار بين جزائر ، فأسندنا المركب إلى واحدة منهن على ساحلها نسوة يعمن ويسبحن ويلعبن ، فأنسنا بهن ، ولما قربنا منهن تهاربْن فى الجزيرة » .

وتمضى الحكاية فتزعم أن هذا الملاح ومن معه من التجار بادلوا أهل الجزيرة عروضهم من الحديد والنحاس والكحل والخرز والثياب بما عندهن من الأرز والغنم والدجاج والعسل والسمن ، ثم طلبوا بضائع منهن يشترونها ، فقُلْنَ ليس عندنا إلا الرقيق ، فاشتروا طائفة كبيرة ، ولكن لم يكادوا يمضون

فى البحر حتى تطاير هذا الرقيق تطاير الجراد والمركب تجرى فى موج كالجبال ، وكانت لا تزال بين القوم جارية فى قاع السفينة ، فأمسك بها الملاح وأقعدها وأقامت معه ثمانى عشرة سنة مقيدة ، واستولدها ستة أولاد . كان منهم راوى القصة ! ويزعم أنه مات أبوه ففكوا عن أمهم قيودها رحمة بها وإبراراً لها وحنوا عليها ، يقول :

« فخرجت كأنها الفرس السابق ، وانطلقنا خلفها ، فلم ندركها ، وقال لها بعض من قرب منها : تمضين وتخلّين أولادك وبناتك . فقالت : ما أعمل لهم ، وطرحت نفسها فى البحر ، وغاصتْ كأقوى حُوت يكون ، سبحان الخالق البارئ المصور . »

وعلى هذا النحو نجد عند العرب أساطير بحرية تشبه من بعض الوجوه الأساطير التى كانت معروفة عند اليونان القدماء ، فكثيراً ما آمنوا بأن بطلا من الأبطال ولدته الآلهة التى تحيط بجزيرتهم وترفرف فوق مياهها ، وقد أشار هوميروس فى قصته «الأوديسة» إلى ساحرات يسمين «سيرينا» يُتمن بأعلى الصخور فى بعض الجزائر ويغنين غناء رائعاً ساحراً ، ويسمعهن البحارة ، فيذهلون عن سفنهم ، ويتركونها تجرى مع الرياح إلى أن ترتطم ببعض الصخور ، وتتحطم تحطيما . حينئذ يثوبون إلى رشدهم ويعرفون أنهم وقعوا فى حبال مكْر هؤلاء الساحرات وكَيْدهن ، وكان كيداً عظيما !